النقد الأدبي في العصر العباسي

لم تعرف الحياة الأدبية و العلمية عند العرب عهدا خصبا بالرجال و الأفكار و مختلف الأمزجة، كما عرفت في صدر الدولة العباسية، فقد كان فيها ضروب شتى من التفكير، وضروب شتى من البحوث، وقد كان فيها ولع بالمعرفة، وانصراف إلى العلوم و الفنون في قوة و إيمان. فبينا رجال الدين يبحثون في القرآن والحديث و الفقه و الأصول، وبينا علماء العربية يجمعون اللغة، ويدوّنون النحو، ويستنبطون العروض، وإذا بعلماء آخرين ينقّبون في آثار الفرس و السريان واليونان، وينقلون منها إلى العربية الصالح المقبول. وما انقضى عصر الرشيد حتى كانت العلوم اللسانية و الشرعية قد دوّنت، وحتى ألم العرب بكثير من أفكار الأمم الأجنبية و طرقها في البحث و التحليل، وهذه الحياة العلمية المتشعبة هي التي أنبتت الجاحظ، وسهل بن هارون، وأبا تمام، وابن الرومي وغيرهم من الكتاب و الشعراء،

أثرت الحياة العلمية في النقد تأثيرا بعيدا لا في ظواهره فقط ولا في أشكاله، بل في جوهره وحقيقته، وفي الثقافة التي ينحدر منها، فالنقد الأدبي منذ القرن الثالث يقوم على البلاغة و الثقافة، و الفلسفة، و المنطق وكل ما دخل في الذهن العربي من المعارف الأجنبية، فلن تراه سهلا فطريا كالذي عهدناه قبل هذا العصر، وإنما هو نقد متشعّب النواحي، مختلف الأمزجة، دقيق، متأثر بما جاء به العلم في صدر الدولة العباسية، متأثر كذلك بروح النقد القديم.

1_ اتجاهات النقد في العصر العباسي:

اتّجه النقد الأدبي في العصر العباسي إلى اتجاهات ثلاثة:

أ_ اتجاه عربي صرف لم تمازجه ثقافات وافدة أو تؤثر فيه عوامل دخيلة، وقد تمثل هذا الاتجاه عند جماعة اللغويين و النحاة، كالخليل و الأصمعي، و أبي عمرو بن العلاء و الأخفش، وابن الأعرابي و المبرد، كما تمثّل هذا الاتجاه عند بعض النقاد الأوائل الذين عالجوا النقد حسب ما انتهى إليه علمهم في مصنّفات مستقلة، رتّبوا فيها الشعراء إلى طبقات كما فعل ابن سلاّم، أو تناولوا فيها الحديث عن الشعراء و أخبارهم ومنزلتهم كما فعل ابن قتيبة في كتابه الشعر و الشعراء.

ب_ اتجاه عربي اعتمد على الطبع والذوق ثم دعمته الثقافات المنوعة التي نهضت به وغذته، وكانت له رافدا قويا، ولكنها لم تقض على أصالته و سمات عروبته، وهو ما نلحظه عند الآمدي في موازنته، وعند القاضي الجرجاني في وساطته، والجاحظ في مجال نقد النثر.

ج _ اتجاه تأثر فيه أصحابه بالتيارات الثقافية الأجنبية شكلا وموضوعا؛ حيث خضع النقد فيه لسلطان المنطق و الفلسفة، وغلب فيه العقل على الذوق، و الفكر على الحس، وقد تمثل هذا الاتجاه عند قدامة ابن جعفر في كتابه نقد الشعر.

2_ عوامل ازدهار النقد في العصر العباسي:

1_ غزارة الثقافة وتعدد روافدها وتنوع ألوانها: فقد تلاقت في الحواضر الإسلامية شتّى الثقافات التي تمثل حضارات الأمم العريقة في العلم والثقافة.

2_ عناية الخلفاء والأمراء بالشعراء: فقد احتفظ الخلفاء والأمراء ولاسيما في الصدر الأول من العصر العباسي بأعظم خصائص العروبة، من حب للشعر وتقديره، والقدرة على تمييز جيّده من رديئه، ونقد ألفاظه ومعانيه بحاستهم الفنية و أذواقهم المرهفة، وقد كان للخلفاء في المجالس دورهم في نقد الأدب، فهم يستجيدون و يوازنون بين قول و آخر، وقد يكون للعلماء وجود فيدلون بآرائهم اللغوية و النحوية، فقد اشتهر أن الأخفش كان يحضر بعض هذه المجالس، ويدلي برأيه فيها.

3_ الخصومة حول الشعراء، فمن العوامل التي أشعلت جذوة النقد، وأذكت وطيسه في ذلك العصر خصومة النقاد حول بعض الشعراء العباسيين، ما بين متعصب لشاعر، أو متعصب عليه.

4_ نشاط حركة النقل والترجمة: نشطت حركة النقل والترجمة في هذا العصر، و أدى هذا إلى إثراء الأدب و النقد بما تُرجم من فلسفة اليونان و منطقهم، فقد صبغت عقلية الأدباء و النقاد بآثارها العميقة في التفكير و المعاني؛ وقد ظهر أثرها واضحا في تطور النقد العربي، وأول ما ظهر كان عند المتكلمين الذين رأوا حاجتهم الملحة للفلسفة حتى يدفعوا المطاعن عن القرآن.

5_ الأثر القرآني: فمن أهم العوامل التي أثرت في تطور النقد العباسي القرآن الكريم فقد كان له أثرا مباشرا بفضل جهود العلماء الذين تعرضوا لأسلوب القرآن وبيان جوانبه البيانية، محاولين إثبات إعجازه البياني بمقارنة الشعر العربي، و أثرا غير مباشر تمثل في ترقيق القرآن لأذواق النقاد بما جرى به أسلوبه من الصياغة الرائقة و الصور الجميلة.

6_ الحركة اللغوية: نشطت الحركة اللغوية في هذا العصر نشاطا كبيرا، وكان من أهم ما حفّزهم إلى ذلك القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف حتى لا تستغلق دلالتهما على أفهام الناس.

7_ العوامل الاجتماعية: أثّرت الظروف الاجتماعية في فكر الشعراء والنقاد وعكست ملامحها عليهم، وهذا ما يؤكده وصف الأستاذ أحمد الشايب لأدب العصر العباسي بأنه: "

أدب حضري، مترف مثقف هادئ، مستقر، يعتمد على العقل والفكر والعلم الكثير، والمزاج الرقيق، والحياة الخصبة الناعمة، والبيئة الاجتماعية المنظمة ففاض الأدب بالمذاهب الدينية و الفلسفية، وامتاز بالتنسيق و العمق، و اعتمد على الطبيعة الجميلة، و الأزهار الناظرة، فرق أسلوبه، ولانت عبارته، فكان أدبا حضريا، مهذبا على وجه العموم".